

متعة الخيال وسيناريوهات القدر الروائي

نظرة على رواية «بعد سبع سنوات» للكاتب الفرنسي غيوم ميسو

هل اجتاحتك في يوم ذلك الشعور الذي تفقد فيه الأمل وتظن ألا عودة؟ وهل جربت في يوم مرارة الفقد ورحمت تسد ثغرات الزمن بما يلائم حزنك؟ وهل امتحت نفسك وأنت تودع حبيباً بأفك سوف تمحو كل رسائله وسببقي مجرد ذكرى؟ وهل سارعت إلى تعويض مكانه وعلق نوافذ الأمل؟ وهل يخامرك شعور بعد أن أغلقت بابه أن لا وجود لفسحة أمل؟ أعرف أن إجابتك عن هذه الأسئلة ستكون بنعم، فمن منا لم يذق طعم الفقد إلا ما ندر، ومن منا لم تلسعه الحياة بسّمها ولو للحظات؟ ومن منا لم يتقلب في غمار هذا العدم؟

القيم يسمح لهما بالتقدم في الحياة، فسبستيان كان قد تربى تربية محافظة، في حين كانت نيكي امرأة منفتحة وتؤمن بالحرية في كل شيء.

ورغم إجابتهما توأمين هما "كامي" و"جيريمي"، فإن الطلاق كان عنوان هذا التلاقح المزعوم بين نمطين من الحياة، ولم يكن من الممكن أن يلتقي الزوجان مرة أخرى بعدما استمر الفراق سبع سنوات فكل منهما على حاله، غير أن اختفاء الابن جيريمي الذي كان في حضنة أمه أعاد الأمور إلى نقطة البداية، بداية ستسيل حبر ميسو فوق صحراء البياض ليقدّم لنا الحياة وصعوباتها على طبق روائي ممزوج بنكهة الخيال، حيث يتنقل الزوجان في رحلة من أميركا إلى باريس وصولاً إلى البرازيل، رحلة اختزل فيها ميسو كثيراً من التفاصيل كانت بمثابة دروس حياة لزوجين عصف بهما الطلاق، والطريف في كل ذلك حين تكتشف أن تفاصيل الرحلة مُعدة مسبقاً من لدن الابن من أجل لقاء بين أوبوه -وقد أفلح في ذلك- فلم تكن قضية الاختطاف في البداية سوى مسرحية نسج خيوطها الابن مع صديقة وأخته.

غير أنه وفي غمرة رسم برامجك قد تصادفك محن، وهذا ما أراد ميسو حين دفع بالأحداث إلى أقصاها، حيث زج بالعالمة في إطار مطاردة بوليسية وصلت بهم إلى أحضان مافيا الكوكابين والمخدرات في البرازيل، ومن قمة تنتهي الرواية إلى النقطة الصفر في ضرب من الاسترجاع لمشهد ولادة نيكي للتوأمين، وهي إشارة دالة من ميسو على أن الكتابة ولادة وخلق.

في رواية "بعد سبع سنوات..." قد تجد نفسك منسجماً مع تفاصيل الأحداث إلى حد كبير، ففي ثنايا سطورها ستجد وقائع مرّت عليك وشخصيات تشبهك في مسيرتها، فليست قصة سبستيان ونيكي إلا نموذج يتكرر باستمرار في هذا العالم، فلنأبى قد يعيش السيناريو نفسه ضمن مخاضات الزمن العابرة. ولعل حكمة ميسو في سرد الأحداث هي التي جعلت الرواية تأخذ رونقاً خاصاً وبعداً تشويقياً، حيث أنه صيغ الأحداث بنكهة درامية تغلب عليها نزعة الغامرة. فزوجان كانا طوال رحلتها يفككان الألفاظ التي نصيبها لهما الزمن علامة على أن الحياة مليئة بالمصاعب ولولا نزعة التعاون في حل أزماتها لما استطعنا التغلب عليها. لقد وُجد الخطر الزوجين واستطاعا فعل ما لم تستطع فعله أشياء أخرى، وهذه رسالة مضمونة الوصول من ميسو إلى قرائه في كون الحياة مليئة بالمتعطفات الجميلة والسيئة على حد سواء.

لقد استطاع غيوم ميسو في هذا العمل الروائي كشف النقاب عن



يوسف رحايحي
كاتب تونسي

ولكن... "وكل الأمر في لكن" كما يُقال، قد يُولد من صلب هذا الحزن والضياح بصيص أمل يرتب كل ما فات، وقد تكون في الحياة منعطفات تُعيد تآخيث القدر، فاستدراكات "لكن" في اللغة قادرة على تعديل ما فات، وهكذا هي مشرحة الأحداث في الحياة، فقد تأتي تفاصيل تمثل منعرجاً حاسماً وما عليك سوى مطاوعتها ومسارعتها، فعمل في جرابها كل الحياة.

ربما هذا ما أراد غيوم ميسو من روايته "بعد سبع سنوات..." التي تظهر لنا بمثابة صحراء يزرع فيها ميسو شواغل الحياة المعاصرة، ويتنظر أن يسبقها القارئ بماء التلقي وجماليته، فينبت منها زرع الكلمات ليبت على الناس ما حصد. هذه الأسئلة التي أصوغها عليك بشكل برقي تمهيدا لعوالم الرواية لم تكن لتوجد لولا ابتعاثها الجديد في عالم الكتابة، ولاسيما حين يتعلق الأمر بالروائي غيوم ميسو الذي ما فتئ ينتصر لهذه القضايا والقيم (الحب، الصداقة، الأمل، الزمن، الطلاق)، فمذ بدأت الإبحار في رواياته تفتحت أن الكثير من المشاغل في انتظارنا سواء أكنّا قراء عابرين أو متسلحين بعدة البحث فيما وراء السطور والتفتيش عن مكونات المعنى.

في رواية «بعد سبع سنوات...» قد تجد نفسك منسجماً مع تفاصيل الأحداث إلى حد كبير، ففي ثنايا سطورها ستجد وقائع مرّت عليك وشخصيات تشبهك في مسيرتها، فليست قصة سبستيان ونيكي إلا نموذج يتكرر باستمرار في هذا العالم

حديثنا في هذه السطور المستعجلة سيكون حول رواية "بعد سبع سنوات..." لغيوم ميسو الصادرة بالترجمة العربية عن المركز الثقافي العربي سنة 2015 ترجمة محمد التهامي العمري، وهي رواية تحكي قصة زوجين هما "سبستيان" و"نيكي" اللذين تزوجا رغم اختلاف الطبائع ونمط العيش، ولم ينجحا في التوافق على رصيد من



غيوم ميسو يكتب رواية ذات أحداث بوليسية لكنه يرسم صوراً للدافقة والحب والانفصال والأمل

في هذه الحياة حتى وإن ظننا أن لا مجال لعودته، وهذا ما استطاع ميسو تآخيث صرّحه من خلال سيناريوهات القدر الروائي الذي قد يخفي نظرة الكاتب للوجود من حوله. ولم تكن نحن في كل هذا بمعزل عن هذا الأمل، فقد تجولنا مع الشخص في باريس وأزقتها والبرازيل وغاباتها دون أن نبرح أماكننا بالفعل، وقد تعلمنا في ثنايا السطور الكثير من التفاصيل، وقد وصلنا في بعض الأحيان إلى أن نتقمص أدوارا لم نكن لنحظى بها لولا متعة الخيال، فلك هي سيناريوهات القدر الروائي.

المنطق، فاختفاء الابن وتجهيز كل تلك الترتيبات للقاء الزوجين من الفندق إلى عشاء السفينة حيث "جسر الما" وصولاً إلى غابات الأمازون في البرازيل يشرّع السباب لسرب من المساوآت، ورغم علمنا أنها مرتبة بفعل فاعل فإن ميسو أراد بها شيئاً آخر، فماذا يقصد ميسو بهذا السيناريو؟ سيكون القدر هو العامل الرئيسي الذي يُهندس هذه الأفكار ومن ورائه أراد ميسو أن يقول لنا إن للأقدار

الحظات "وقد احتضن كل منهما الآخر ثم ابتعدا عن بعضهما". لقد رمى ميسو من هذا القص الرائع إلى أن يقول للقارئ إن الأمل قد يتسلسل

مادام لكل قارئ فسحة في التلقي والتأويل أرى أن الرواية ينظمها خيط رفيع قد يغيب عن القارئ، فهناك شيء ما وراء تركيب هذه الأحداث وفق هذا

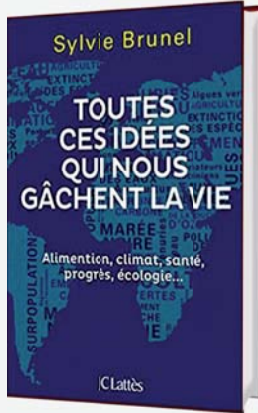
الجوانب السلبية للطلاق الذي يؤدي إلى تفكك الأسرة ولاسيما الأبناء الذين يقعون في محنة التشرد والضياع، وهو بذلك يسرد القلق الدفين الذي تعانیه الأسر في المجتمعات الغربية في ظل العولمة، واللافت للانتباه في تمرير هذه القضايا أن ميسو يحاول في كل مرة أن يُنسي قارئه هموم التفاصيل ليُرّج به في عوالم الحكى المشوق، وهذه لعمرى صنعة روائية لتبليغ هموم الإنسان ومشاعله بصورة في غاية الروعة، حيث تشدّ ذائقة المتلقي وتؤنسه في رحلة التفتيش عن المعنى الكامن وراء عوالم اللفظ، إنه المعنى الذي نبحث عنه لنعيش به.

ومادام لكل قارئ فسحة في التلقي والتأويل أرى أن الرواية ينظمها خيط رفيع قد يغيب عن القارئ، فهناك شيء ما وراء تركيب هذه الأحداث وفق هذا



الأفكار المزعجة

"إنها نهاية العالم. الأرض تموت. نحن نعيش فوق طاقتنا. لتغير أنماط عيشنا قبل فوات الأوان" ذلك ما نسمعه كل يوم. كلام يصاغ في شكل تهيم يامرنا بالتكفير عن ذنوبنا. الحياة صارت أكثر صعوبة، وأصحاب السترات الصفراء ينزلون إلى الشارع. كل ذلك جعل الإيكولوجيا عبارة سلبية ينبغي استبعادها، والحال أنها كان يمكن أن تؤخذ الصوفية، وتحشد الهمم. ولكن ماذا يحدث لو يتضح أن من يشعروننا بالذنب ويريدون أن يفرضوا علينا عدة تضحيات مخطوون؟ وأن أوامرهم والتضحيات التي يبررونها تستند إلى معطيات خاطئة؟ صحيح أن العالم يتغير، ولكنه ليس أسوأ من ذي قبل. بالعكس، الأشياء تتطور خلافاً للخطب المتهمة لدعاة القيامة، علم الانهيار المعلن والذي يحمل مصطلح "collapsologie" أي سقوط المجتمعات والحضارات دفعة واحدة. في كتاب "كل هذه الأفكار التي تفسد علينا حياتنا: التغذية، المناخ، الصحة، التقدم، الإيكولوجيا..." تؤكد سيلفي برونيل أن الحلول كي نعيش على هذه الأرض بسلام موجودة، ولكن شرط أن نكف عن نشر معلومات مغلوطة.



التوتاليتارية الجديدة

حظر كل ما نقدر عليه، وإخضاع ما تبقى للضرائب الإيكولوجية، ذلك شعار المدافعين عن البيئة في السياسة. إذا كان ثاني أكسيد الكربون البشري هو المشكل، فمن الواجب كبح الإنسان، ومراقبته وتوجيهه على أنشطته التي تطلق ذلك الغاز، أي كل نشاطه. في "الإيكولوجية توتاليتارية جديدة" يقدّم داريو غودفريدي البحث في الإيكولوجيا من جذر إيثاقها المناهض للأنشطة إلى نزوة مطالبتها الملموسة كالغذاء السيارة والطائرة واللحم والنوي، والحياة في الريف واقتصاد السوق والفلاحة العصرية، باختصار الحداثة منذ 1750، لبيان أن النزعة الإيكولوجية تحدد أيديولوجيا أكثر راديكالية في دعواتها القائمة للحريات والمناهضة للاقتصاد والرامية إلى قتل الإنسان من أي توتاليتاريا من توتاليتاريات القرون الماضية. فمثلها الأعلى في اعتقاده هو قسمة البشرية على عشرة. ويستشهد بإتيان دولابويسسي صاحب "الرق الإرادي" في قوله "الشعب هو الذي يُخضع نفسه، ويقطع رقبته".



كيف نصنع دكتاتورية

آخر إصدارات ميشيل أونفري كتاب بعنوان "نظرية الدكتاتورية" يشرح فيه كيفية إقامة نظام دكتاتوري من نوع جديد، يمر بالمراحل التالية: هي أولاً: تحطيم الحرية عن طريق المراقبة الدائمة وتدمير الحياة الفردية وإلغاء العزلة والاحتفاء بالأعياد الإيجابية وتوحيد الإراء. ثانياً: تفكير اللغة بممارسة لغة جديدة، واستعمال لغة مزدوجة، وتدمير الكلمات، والتحدث بلغة وحيدة، وإلغاء الكلاسيكيين، وجعل اللغة شفوية. ثالثاً: إبطال الحقيقة، بتدريس الأيديولوجيا، وتدجين الصحافة، ونشر أخبار زائفة، وإنتاج الواقع. رابعاً: إلغاء التاريخ، بمحو الماضي وإعادة كتابة التاريخ، وإبتكار الذاكرة، وإتلاف الكتب، وتصنيع الأدب. خامساً: إنكار الطبيعة بتدمير غريزة الحياة، وتنظيم الحرمان الجنسي، والإنجاب طيباً، وتعقيم الحياة. سادساً: نشر الكراهية، باختلاق عدو، وتدبير حروب، وإخضاع الفكر للتحييل النفسي، والقضاء على آخر إنسان. سابعاً وأخيراً، لإقامة امبراطورية ينبغي تطاير الأطفال، إدارة المعارضة، الحكم بواسطة النخب، إخضاع الناس بواسطة التقدم، إخفاء السلطة، أي أنه في النهاية يتحدث عن الواقع الحالي الذي تعيشه الديمقراطيات الغربية.

